

كنتُ من شيوخ الطريقة الخلْوتية!

الكاتب

مهندس طيار: محمود المراكبي



أما بعد، فيسرنا أن نقدم للمكتبة الإسلامية الكتـاب الثالـث مـن سلسـلة الظـاهر والباطن، وتأتي أهمية هذا الكتاب أنه المراد من كل هذه السلسـلة، وفي نفـس الوقـت هـو ختام البيان في موضوع انحراف الباطنية بأفكارهم الغريبة عن حقائق الإسلام، وقبـل أن أقدم لهذا الكتاب أجد لزاما علي أن أروي للقارئ الكريم قصتي مع التصوف، فأنا لسـت باحثا أكاديميا أتقدم برسالة لنيل درجة علمية، إن وراء هذه السلسـلة مـن الكتـب قصـة حقيقية، وتجربة واقعية غنية بالأحداث.

فقد كنت شيخا للطريقة الخلوتية العيونيـة، وكثـير مـن النـاس انخـرط في طريقـة صوفية، ثم تركها بعد فـترة، دون أن يـترك الموضـوع عنـده أي أثـر، ومـن ثـم لا يعـرف خلفيات الأمر وأبعاده، أما تجربتي فقد بدأت مع مشارف السبعينيات، فقد تلقيت طريـق القوم بإذن من رجل فاضل - رحمه الله - كان يشغل منصـبا رفيعـا - مستشـارا في مجلـس

١ حديث أنس متفق عليه، أخرجه البخـاري: ٣٤١٢، ومسـلم ٤٧٧٥، وأبـو داود في سـننه ٤٤٦٢، والترمـذي ٢٣٠٧، ٢٣٠٨، وأحمد في مسنده في أكثر من عشرة مواضع. حديث عبد الله بن مسعود متفق عليه، أخرجه البخاري ٥٧٠٢، ٥٧٠٣، ومسلم ٤٧٧٩، وأحمد ١: ٣٩٢، ٤: ٤٠٥، حديث أبو موسى الأشعري متفق عليه، أخرجه البخـاري ٥٧٠٤، ومسـلم، وأحمد ٤: ٣٩٢

الدولة – وكان جم الأدب، كثير الصمت، صادق اللهجة، يميل إلى العزلة، دائم الذكر، حديثه طيب، ليس فيه غلو، ولا شطط، يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويأمر بمداومة ذكر الله ﷻ، ويحذر المريدين من الغفلة عن ذكر من لا يغفل ولا ينام، وقد أحببت الرجل حبا عظيما، وطلبت التلقين على يديه، في وقت كان يعد نفسه للابتعاد عن الطريق وتولية ابن الشيخ الكبير مكانه في مسئولية الطريق، لذلك فقد أمره أن يلقنني الطريق، وبدأت أسلك طريق القوم.

وقد توجهت من كل قلبي قاصدا وجه الله تعالى، والتزمت كل الالتزام بما أمرني به شيخي من الاستغفار والصلاة على النبي ﷺ، وذكر "لا إله إلا الله"، وبطبيعة الحال لم يكن عندي من العلم آنذاك إلا القدر الذي يعرفه عامة الناس، وبدأت أشاهد الرؤى، وتتابع عندي البُشريات، وبدأت ارتقي مراتب الطريق المرتبة تلو الأخرى، وأنا غارق في القراءة، وطلب العلم مع المداومة على ما أمرني به شيخي، ولم تمضِ ثلاث سنوات حتى أجازني شيخي، وكلفني بمشيخة الطريق، وما لبث الشيخ أن ترك الإخوان، واعتزلهم، وكلفني بمشيخة الطريق، ودعوة الخلق إلى طريق الحق، وتلقين المريدين بل وترقيتهم بما في ذلك الإجازة بمشيخة الطريق. وشعرت بعِظَم المسئولية، خاصة وأنا أستفتح الحضرات يوم الجمعة في مسجد التحرير بمصر الجديدة، ويوم الأحد بمسجد السيدة نفيسة رضي الله تعالى عنها، ومن إدراكي لأهمية إبلاغ الناس أمر هذا الدين، فقد ازددت شغفا بالعلم الشرعي، لِأُعَلِّم نفسي أولا، ثم لأنقل العلم الصحيح للمريدين، فقد اعتدت أن أجلس بعد الحضرة، وأتلقى الأسئلة، وكان مفروضا أن أجيب عليها، وهذا ما تلقيته، عن شيخي، عن شيخه، إلا أني آليت على نفسي ألا أُجيب عن أي سؤال من تلقاء نفسي، وإنما

أنقل ما تعلمته، وقرأته عن علماء الأمة، وسلفها الصالح، وإذا ما سُئلت عما لا أعلم فـإني أطلب من السائل أن يمهلني لأدرس سؤاله، وأجيب عليه في الحضرة التالية.

ثم أراد الله تبارك وتعالى أن تتكشـف أمـامي مواضـع الاخـتلاف بـين التصـوف، والكتاب والسنة. وكان في النفس شيء من بعض أجزاء الورد، وسـألت عنهـا، فقيـل لي: صبرا، وسيفتح الله عليك بمعانيها، فآثرت الانتظار، إلى أن عرضت لي أول قضية أثـارت انتباهي، وهو نص في الورد الـذي كنـا نـردده فـرادا، أو جماعـة في الحضرة، حيـث يقـول الشيخ: "اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي شاهد ربه بعيني رأسـه، وطـاب وما غاب"[1] وتذكرت حديث السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها المعروف في كتب العلم، والذي أخرجته معظم مصادر الحديث الشريف، وعلى رأسها البخاري ومسـلم، والـذي تستنكر فيه هذا القول وتستقبحه، وتصف من قال: إن محمدا رأى ربه بأنه قد أعظـم عـلى الله الفرية، فكانت دهشتي بالغة: كيف يخـالف شـيوخنا حقـائق الـدين وفهـم الصـحابة عنها، ومن أين أتوا بهذه الصيغ؟! فعكفت الشهور الطوال أدرس هـذا الموضـوع، أطـالع كتب الحديث وشروحها، وكتب السيرة ومـا يتعلـق بـالإسراء والمعـراج، وأشـهر كتـب التفسير، حتى اطلعت على أقوال الصحابة في هذا الموضوع، وانتهيت إلى أن الراجح عنـد علماء الأمة، أن رسول الله ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه يوم المعراج، وأن هذا الخبر انفرد به ابن عباس في رأي نقله عن كعب الأحبار، كما نُقل عـن ابـن عبـاس رأي آخـر، قـال فيـه: أن محمدا رأى ربه بفؤاده.

فبدأ الشك ينتابني إذ لم أكن أتصور أن هذا الطريق بعيد عن الكتاب والسنة، ففتح الله تبارك وتعالى عيني على مخالفات أكبر، وكلما ظهرت لي قضية أتفـرغ لهـا تمامـا، وكنـت

١ المحامد العونية العيونية في الصلاة على خير البرية، تأليف محمود أفندي عوني.

أشعر بتوفيق الله تعالى وتيسيره واضحا جليا، ومن ذلك أني كنت في يوم أدرس ظاهرة الشطح عند الصوفية، وفي ساعة متأخرة من الليل، احتجت مجموعة من الكتب تناقش الموضوع، وإذا بصديق يمر علي، فأسأله عن الكتب، فيأتيني بها من مكتبته في دقائق.

وهكذا بدأت تتكشف الأمور الواحدة تلو الأخرى، وظللت على هذه الحال ثلاث سنوات، أو أربع، ألتقي خلالها بمشايخ الطريق، ومنهم من يكاشف[1] الناس بكثير من الأحداث، إلا أن أحدا منهم لم يشعر أني أبحث في تأصيل الطريق، ومدى حيوده عن الكتاب والسنة.

وبعد دراسة متأنية تجمعت عندي جوانب القضايا، وحقائق معظم المخالفات الصوفية. ثم بدأت في مرحلة مفاتحة مشايخ الطريق وخلفاء الشيخ الأكبر، حتى أتبين مواقفهم وحقيقة عقيدتهم، وكان هاجسي الأكبر: هل يتتصرون لله ورسوله؟، أم أن حب الشيخ والطريق هو حقيقة دينهم؟ وما تركت منهم شيخا إلا وناقشته - خاصة صلاح القوصي، الذي طالت مناظراتي له الساعات الطوال، والليالي ذوات العدد، وقد طلبت منه حضور مريديه، وأتباعه معه لجلسات النقاش، إلا أنه أصر وبإلحاح على تجنيب الإخوة مثل هذه الأمور، وأنه سيبلغهم بما نصل إليه؟ وقد ظهر لي جليا أنه كان يتعمد إخفاء القصور في فهمه، وضحالة عقيدته، وأن تظل صورته المرسومة في أذهان تابعيه في أعلى مكانة ممكنة، ولم يكن له أن يعترض على حضور السيد/ عمر البدوي، وهو أخي في الله، سرنا معا الدرب كله، وكان متتبعا لمنهج التصحيح الذي وفقني الله ﷻ إليه -، وقد

---

١ المكاشفة: هي نوع من الفتح في الفهم الصوفي، ولشيخ الذي يكاشف الناس يبادرهم بأشياء حدثت معهم، أو ستقع لهم، وقد سمعت بنفسي مكاشفات عديدة من أكثر من شيخ، وقع بعضها كما أخبر، وأكثرها لم يقع، بل وقع خلاف قوله، وهي تستهوي أكثر زوار هؤلاء المشايخ الذين يذهبون إليهم حبا في سماع هذه المكاشفات.

وفقني الله تبارك وتعالى أيضا لدحض جميع دفاعاتهم، حتى ألجمهم الصمت، وكثيرا ما كان يفتح فاه من الدهشة عندما ألقنه الحجة والدليل، فما وجدت عند القوم دليلا، ولا برهانا، سوى قولهم: "إن شيخنا كان رجلا صالحا، وعالما في كلية أصول الدين، فكيف يفوت عليه خلل؟ وتأتي أنت، وتنتقد ما استمر عليه الشيخ حتى وفاته"، وعجز المشايخ عن الإجابة عن تساؤلاتي، والتعقيب على اعتراضاتي، ولم يتمعر وجه واحد منهم لله تعالى، ثم استقطب النقاش طامع في مكانة الشيخ الأكبر، وهو رجل مثقف حاصل على الماجستير في الكيمياء، وكان يعمل في السعودية آنذاك، فكان إذا سمع حجتي وافقني، حتى أنه قال لي: أقسم بالله لو أن ما تقوله صحيحا لأترك الجمل بما حمل، فظننت أن الله سيهديه إلى الحق، إلا أنه طالبني بمهلة يقرأ فيها ما قرأت، وسار على خطة خبيثة، فقد أمر مريديه بالابتعاد عني، وأشاع أنني كنت على وشك أن يفتح الله علي وأتلقى: "كن فيكون"، إلا أنني لم أحتمل الأنوار فتوقفت، وفُتنت بالعلم"، وطالبهم بعدم زيارتي، وعدم الإنصات إلي، ولما نقضت إجازته عاد إلى السعودية، وبعث لي برسالة طالبني فيها أن أكتب له عن المآخذ التي توصلت إليها عن التصوف، وتعهد بأن يبعث لي بالرد عليها، فبعثت له بقضية العدوان في الدعاء، والمنتشرة ليس في أوراد طريقتنا فقط، وإنما في معظم أوراد الصوفية، وقلت له: سأبعث لك تباعا موضوعا تلو موضوع إذا بعث لي بالرد عليها، وما كان من الرجل إلا أن انقطع عن الكتابة، ولم يصلني منه الرد حتى الآن، وعندما قابلته بعد عشر سنوات، وسألته عن الرد، قال لي أنه حر يبعث، أو لا يبعث بالرد، وبعد ما يزيد على عشر سنوات، أراد الرجل أن ينفصل كليةً عن الطريق، ويصنع لنفسه طريقا خاصا، فما كان منه إلا أن غير جميع الأوراد، وزعم لمريديه، أنه تلقى هذه الأوراد من النبي ﷺ، وأنه أخرج من الأوراد جميع المآخذ التي أخذتها على الطريق، ففرح

المريدون، واتصل بي بعضهم يدعوني لجمع الشمل، فقد حذف النبي ﷺ كل ما اعترضت عليه - على حد قوله - وعندما اطلعت على الأوراد الجديدة أدركت أن الرجل كاذب محتال، بل وفات عليه أشياء تثبت أن عقيدته لم تتغير، وإنما فقط تلونت وخفضت رأسها للعاصفة، ونفس المفاهيم الشركية موجودة، فالإلحاد في ذكر الله قائم، وعقيدة وحدة الوجود موجودة، والرجل يضحك على أتباعه السذج بحذف الأسماء السريانية، وسارت الأيام حتى أصدر الرجل ديوان شعر جديد سماه العتيق، وأخطر ما في الديوان التعليقات التي يشرح فيها مراده من نصف أبيات الديوان، وكل تعليق من هذه التعليقات كارثة كبرى، فالرجل يعلن أن له كرامات، وأنه يوحى إليه، وحدث له إسراء إلى جبال الأناضول، ومعراج إلى السماء السابعة، وأنه تعين القطب الغوث[1].. وسنتناول مزاعم الرجل في ثنايا هذه الطبعة من الكتاب.

ولما أصدرت كتابي الأول، أسميته: "القول المبين لنفع السالكين" كان عندي بعض الأمل أن يستمع الصوفية إلى نداء الكتاب والسنة، والإعراض عن البدع والشركيات، ولكن هيهات، فاستمر بحثي عن أصل هذه الأفكار. ومتى ظهرت في الإسلام؟ ومَنْ أول مَن أظهرها مِن الناس؟ محاولا الوصول إلى أصول الصوفية، والمنابع التي استقت منها هذه الأفكار.

ثم تيسر لي بفضل الله تبارك وتعالى كتابة هذه السلسلة التي سطرت فيها تجربتي كاملة، لمناقشة الأفكار الدخيلة على الإسلام، ولبيان حقيقة التصوف المعاصر، ومكانة أفكاره، ومعتقداته من الكتاب والسنة، ثم جاء سؤال مهم جدا سمعته من بعض أصدقائي ممن ينتمي إلى التجانية، يقول فيه: "لِمَ اعتراضك على التصوف ككل؟ قد يكون

١ راجع كتاب "موسى والخضر علما الظاهر والباطن" لمعرفة المقصود بالقطب الغوث.

طريقك الذي سلكته فيه بعض الشطط والزيغ، والانحراف، فما ذنب الطرق الأخرى؟ أهناك ما يؤكد أن كل الطرق على شاكلة طريقك؟ وشيخنا الحافظ عالم في الحديث، وريقنا مطابق للكتاب والسنة لا يخالفهما قيد أنملة"، والرجل بسؤاله هذا يحاول أن يحصر الاعتراضات في الخلوتية، أما التجانية، أو الشاذلية، والدسوقية، وغيرها، بل وباقي الطرق الصوفية فخالية من ذلك، والتصوف ككل بريء، فطلبت من الرجل كل ما طبع من كتب، وأوراد التجانية لأدرسها، فزودني بها، فهالني زخم المخالفات في التجانية، فعلمت أن الرجل يدافع بحسن الظن، وأنه لم يقرأ كتب طريقته، ولا يدري ما فيها، عندئذ قررت الحصول على ما أستطيع الوصول إليه من أوراد الطرق الصوفية، وبدأت مرحلة ثالثة، حين درست أوراد عشرين طريقة صوفية هي ما أمكنني الوصول إلي مصادرها، وكتب أورادها، وأخذت أتتبع أفكار الانحراف الممثلة في وحدة الوجود، وذكر الله بالأسماء السريانية، والعدوان في الدعاء، وغيرها من الأفكار - التي سنناقشها بالتفصيل في كتابنا هذا - وللأسف الشديد كان هناك اتفاق بين جميع الطرق الصوفية العشرين على نفس الأفكار والدعائم؛ لذا فقد تحول البحث من قضية طريق صوفي إلى مناقشة قضية التصوف ككل.

ومن هنا جاءت هذه السلسلة من الكتب، ولما كانت قصة موسى والخضر عليهما السلام هي: الدعامة الأساسية التي يرتكز عليها الصوفية والباطنية، فقد خصصت لها **الكتاب الأول: "موسى والخضر عليهما السلام"**، الذي أبين فيه كيف اعتمدت الفرق الباطنية على قصة موسى والخضر ولقائهما في تقسيمهم للدين إلى ظاهر وباطن، والكتاب يناقش ويجيب على مجموعة من الأسئلة، منها:

- مَن الخضر؟

- وهل حي للآن أم لا؟
- وهل هو نبي أم ولي؟...

ثم يأتي **الكتاب الثاني**: **"جذور الشيعة وجيش المهدي" الطبعة الثالثة من كتاب: "تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية"**؛ ليناقش فكرة تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن، وهي الفكرة التي اتكأ عليها الفكر الباطني عموما، ثم ناقشت في هذا الكتاب أيضا: كيف تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية؟ والمراحل التي مر بها انحراف الباطنية من اليهود، ثم تأثير التأويل الباطني على عقيدة النصارى، ثم كيف تسرب الفكر الباطني إلى الإسلام؟ حتى ظهر فكر الشيعة، والغلاة من الإسماعيلية والدروز، وقد وفقني الله تبارك وتعالى في الطبعة الثالثة من الكتاب الثاني، حيث أضفت إليها إضافات أساسية، عمقت الدراسة وضاعفت الفائدة، والله ﷻ هو ولي التوفيق.

ثم يأتي الآن دور **الكتاب الثالث**: **"عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة"** الذي بين يديك الآن، الذي هو عمود الرحى، والهدف من كل هذا الجهد؛ حيث يقيس مفاهيم الباطنية والصوفية في هدي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ثم يكشف عن مواضع الاختلاف بين التصوف، والكتاب والسنة، ثم يتعرض بالكشف عن أوراد عشرين طريقة صوفية [هي ما أمكننا جمعها]، وما في هذه الأوراد من تجاوزات، وتعدٍ في الدعاء وشركيات، واستعانة بالمشايخ، وطلب التصريف، وغلو في إطراء النبي ﷺ، والدخول في مفاهيم وحدة الوجود. وسوف تتعجب أخي القارئ من النتائج التي ستصل إليها بنفسك.

ثم يأتي **الكتاب الرابع**: **"القول الصريح عن حقيقة الضريح"**، والذي قد عقدت النية على كتابته منذ سنوات طوال حين تكشفت لي حقائق لا يعلمها كثير من الناس، ومما

زاد من أهمية نشر هذه الحقائق ما يحدث إلى الآن في الأضرحة [ونخص في هذا الكتاب ضريح الحسين وضريح السيدة زينب] من موالد، وحضرات ونذور، وتوسل إلى الله ﷻ بآل البيت. ولما كانت الصوفية هي المسئول الأول عن إمداد هذه الأضرحة والموالد بالمريدين وغيرهم... فماذا سيفعل هؤلاء وهؤلاء عندما يتبين لهم أن هذه الأضرحة التي يتبركون بمن بها من آل البيت لا تضم رفات أحد من آل البيت بها؟!

كما أضفت إلى المجموعة كتابا **خامسا**، هو: **"السلوك القويم على الصراط المستقيم"**، والدافع وراء إضافة هذا الكتاب ما تلقيته من قرّاء السلسلة، حيث قالوا: أنت الآن أظهرت فساد المعتقدات الباطنية، وحذرت كل التحذير من دروب الصوفية، فماذا يفعل أتباع هؤلاء، وغيرهم ممن نبذوا تلك الأفكار وراء ظهورهم، فكيف يُقبلون على الله ﷻ؟ فكان من توفيق الله تعالى أن حددت السلوك الصحيح إلى رب العالمين، في الكتاب الخامس: وهو يشرح سلوك الفرد المسلم إلى الله تعالى.

وأسأل المولى الكريم رب العرش العظيم أن يطيل في أعمارنا، وأن يحسن من أعمالنا، حتى أقدم الكتاب السادس من هذه السلسلة والذي سيتناول: سلوك الجماعة المسلمة إلى سابق مجدها، وقليل من المؤلفين تناولوا هذا الموضوع، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى تناول هذا الموضوع بالشكل النافع للناس، وأن يجعل عملنا هذا في كفة حسناتنا في ميزان أعمالنا يوم العرض على الرب الكريم، إنه ﷻ نعم المولى ونعم النصير، وأسأل الله تعالى أن يكون عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يكتب لنا ثوابه، وثواب من ينتفع به إلى يوم الدين وصلِّ اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.